صور الفقر في الخطاب المرئي

أ .محمد عزيز الأحمر

أستاذ مبرز في اللغة العربية وآدابها

باردو–تونس

Abstract

This article deals with the image of poverty in media speech. The image uses arguments to influence the audiences that lead them to take affective reactions and even to protest against the poverty. To come to this objective, the speech of poverty exploits the collective representations and the arguments of ethos and pathos.

Keywords :

Image, speech, poverty, representation, pathos, ethos

الملخص

يهتم هذا المقال بدراسة صور الفقر في الخطاب المرئي. إذ تعتمد الصورة على حجج للتأثير في الجمهور وهو ما يجعله يقوم بردود انفعالية تصل به إلى حدّ التظاهر ضد الفقر. وللوصول إلى هذا الهدف، يستغل خطاب الفقر التمثلات الجماعية ويعتمد على حجج الإيطوس والباطوس.

الكلمات المفاتيح :

صورة، خطاب، فقر، تمثلات، باطوس، إيطوس

مقدمة:

أضحت الصورة في عصر الفيديوسفير[1] مهيمنة على نظام التواصل. فمع الثورة المعلوماتية، أصبح العالم قرية صغيرة بفضل انتشار وسائل الاتصال والإعلام سواء عبر شاشات التلفزيون أو عبر الإنترنات. إن هذا الانتشار قد نجح في جعل الإنسان في تعامل يومي مع الصورة الإعلامية.فتجاوزت الصورة بفضل ذلك غاية التمثيل والإخبار لتصبح خطابا له أهداف ومقاصد معينة. وتعد الصورة خطابا بما هو عمل منجز في مقام يتشكّل من مشاركين في التخاطب ومؤسسات ومكان وزمان[2] بهدف التأثير. وتسخّر الصورة حججا متنوعة في سبيل إنجاح هذا الهدف لتدفع المخاطب إلى القيام بأعمال معيّنة. وفي هذا الصدد، ندرس في هذا المقال بلاغة صورة الفقر في الخطاب الإعلامي. وسنهتم تحديدا بالخطاب المرئي الذي يجسّد صور الفقراء والمحتاجين وننظر في صورة المخاطب وصورة المخاطَب.

I. الصورة وتمثلات الفقر

تعتمد صور الفقر على تمثلات المخاطب وتستثمرها للتأثير فيه. ويعدّ التمثّل جملة التصورات الجماعية التي تحدد الطرق المشتركة في الإدراك والمعرفة والتي تتجاوز معرفة الفرد[3] وتشمل القيم والسلوكات والعادات ثقافيّة فتحدد رؤية المجتمع للعالم. واستنادا إلى ذلك، تذهب بعض الدراسات[4] إلى أن الفقر لا يتحدد بعدم القدرة على تلبية الحاجيات الأساسية بل يعرّف بما هو تمثل اجتماعي جماعي يختلف من منطقة إلى أخرى[5]. فكل جماعة ثقافية تصوّر مفهوما خاصا بها للفقر. فتصور الأوروبي للفقر يختلف بالضرورة عن تصور الإفريقي له. وتصور البدوي للفقر لا يتفق مع تصور الحضري له. فكل تمثل هو وليد بيئته. فما قد يندرج في خانة الفقر بالنسبة إلى بعض الأمم قد لا يعدّ كذلك لدى أمم أخرى. فالنسبة إلى البدوي، قد يكون عدم امتلاك أرض دليلا على حالة الخصاصة[6] رغم قدرته على تأمين الحاجيات الأساسية من مأكل ومشرب وملبس ومسكن. فالتمثل الاجتماعي يجعل من امتلاك الأرض قرين الغنى وفي عدم امتلاكها قرين الفقر.

---

[1] عالمي (سعاد) : مفهوم الصورة عند رجيس دوبري، ص 10 عن Debray (R), vie et mort de l'image, p 107

[2] الخبو (محمد) : الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، ص 32

[3] Marcel (jean- Christophe) : representations collectives, encyclopedia universalis

[4] Destremau Blandine : Mustapha Nasraoui, La représentation de la pauvreté dans la société tunisienne [compte-rendu] dans Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée , pp. 259-262

[5] Claire Gondard-Delcroix : Les représentations de la pauvreté : quels échos aux indicateurs internationaux ?, dans Mondes en développement 2007/1 (n° 137), pages 51 à 66

[6] Abdelhamid Hénia : Représentations sociales de la richesse et de la pauvreté à Tunis aux xviiie et xixe siècles, dans Maghreb, dimensions de la complexité p 203-212

بل أن الأرض ترمز في التصور الجماعي إلى الأمن والحماية والاستقرار[7] وفي غيابها تغيب معها كل هذه المفاهيم.

فالفقر إذن عليق بالمتصورات، والصورة الإعلامية تستغل هذه التمثلات للتأثير في مخاطبها. فأن أرى في التلفاز امرأة تقطن في مسكن متداع للسقوط يجعلني أستحضر قيمة امتلاك الأرض ورمزيتها وعلاقة ذلك بثنائية الفقر والثراء. وأن أرى في التلفاز رجلا ينادي " عوني يعاونكم ربي " يجعلني أتمثّل الفقر ضمن ثنائية تقابلية وهي الاستقلال وعدم الاستقلال. فالفقير هو الذي يكون في حاجة دائمة إلى العون والمساعدة فهو غير قادر على تلبية حاجياته بنفسه دون التعويل على الآخرين[8]. أما الثراء فهو المستقل بذاته والقادر على أن يهتم بشؤونه بنفسه. فلا يمكن إذن تمثّل الفقر دون تمثّل الثراء. ففي العالم العربي، يُتصور الثراء أنه باب رزق قد فتح من الله. فالثراء رديف المقدس ويستحضر في الأذهان دلالة البركة ويكنّى أيضا على الغنى بالخير وهو ما نجده في الأمثال التونسية " ناكل خبزي ونقعد في عزي "[9] أو "خبزي مخبوز وزيتي في الكوز[10] ". ففي هذين المثلين ربطت دلالة الخبز بدلالة العزّ والجاه والغنى. فمن الطبيعي أن يكون تمثّل الفقر هو المقابل الموضوعي لتمثّل الثراء وكل تمثّل يستدعي في الذهن متعلقاته ليبني كونا تمثيليا للدلالتين يتسلّح بهما التمثل الجماعي في تصنيف الفقير والغني.

وتستفيد الصورة طبعا من هذا التمثل فيكوّن الإعلام صورة طرازية[11] للفقر. فالفقير هو من شكا السكن ولهث وراء تحصيل الخبز وهو من كان مادا يديه طالبا المساعدة. وتستفيد الصورة إذن من اللغة فتلامس تصوراتنا الجماعية اللاوعية فنستحضر في صورة الفقير رمزية السكن ورمزية الخبز فتنجح الصورة في لمس أعماق تمثلاتنا الأكثر صلابة فتكون أقدر على التأثير. وما يضمن لها النجاح هو تحويلها للصور الذهنية المجردة إلى صورة مرئية ملموسة.

---

[7] المرجع نفسه

[8] المرجع نفسه

[9] خريّف (محي الدين) : الأمثال الشعبية التونسية، ص 108

[10] المرجع نفسه، ص 108

[11] تعرّف روش الطرازات على أنها " أعضاء صنف معيّن يستخدمها الناس لمقارنة العناصر عندما يحكمون على عضويتها في ذلك الصنف" (rosh mervis, 1975 ;575)ورد تعريب التعريف في كتاب الاسم و الاسمية و الإسماء في اللغة العربية لتوفيق قريرة

II. الصورة وحجة الباطوس

يعتمد خطاب الصورة على حجة الباطوس فيسعى إلى تحريك انفعالاتنا كي يؤثر فينا. والباطوس "هو تلك العواطف التي إذا عرف الخطيب كيف يحرّكها في جمهوره ويوجهها الوجهة التي تخدم قضيّته استطاع أن يؤثر في أحكامهم وما يحملونه حول تلك القضية من وجهات نظر، ويوجه من ثمّ رد فعلهم. لذلك كانت معرفة الخطيب بالانفعالات وطرئق استغلالها ووجوه تحريكها مما ييسر له فعل الإقناع ويعينه على عطف القلوب النافرة وعلى قذف اليقين في النفوس الشاكة"[12]. ويمكن لحجة الباطوس أن تحضر في خطاب الصورة في الجانب الشكلي وفي الجانب المضموني.

ففي المستوى الشكلي، عادة ما يتم الاعتماد على أسلوب معيّن في التقاط صور الفقراء فتكون اللقطات قريبة وقريبة جدا تبئر على وجه الفقير أثناء شكواه أو بكائه فيكون أسلوب التقاط الصورة موجّها للمشاعر ومحفّزا لانفعالات المشاهد. أما في مستوى الإضاءة والألوان، فعادة ما يتم الاعتماد على اللون الأسود والأبيض. فاللون الأسود والأبيض يحيل على أوّل تشكّل للصورة المرئية صورة خالية من ألوانها. فاعتماد الأسواد والأبيض في الإحالة على الفقر يراد منه المقارنة بين لون الصورة التقليدي ولون حياة الفقراء. فكما أن الصورة تفقد بريقها بفقدان ألوانها فكذلك تبدو حياة الفقراء دون لون ودون طعم فاقدة لمعناها. فقيمة الصورة في زينتها وألوانها وزينة الحياة الدنيا في مالها. بل يمكن أن نذهب أيضا إلى أن اعتماد اللون الأسود في الصورة يحيل على سوداوية حياة الفقراء. إن هذه التقنيات التي تعتمد عليها الصورة تكون أقدر على تحريك المشاعر.

وهذا التأثير لا يمكن أن يضمن له النجاح دون اعتماد الصورة على مواضع الانفعال وهو ما يظهر أكثر في مستوى المضمون. ولمفهوم الموضع أصل أرسطي استثمره ديكرو وأنسكومبر في النظرية الحجاجية اللسانية. والمقصود بالموضع المبادئ العامة التي يحتكم إليها كل خطاب والتي تؤدي دور المسوّغ والمعلل للنقلة التي تتم من المقدمات إلى النتائج[13]. إذ يقرّ أنسكومبر وديكرو أن الترابط الخطابي بين الملفوظ الحجة والملفوظ النتيجة يتحقق دائما عبر إعمال مبادئ عامة أو مواضع[14]. ومثالنا على ذلك اختيار الشخص

---

[12] عبيد (حاتم) : الباطوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب، فصول، ع 70، ص 38

[13] الراضي (رشيد) : المظاهر اللغوية للحجاج : مدخل إلى الحجاجيات اللسانية، ص 190 عن J. C. Anscombre et O. Ducrot, L'argumentation dans le langue, p.136

[14] المرجع نفسه، ص 192

موضوع الفقر في الصورة. فالشخص له دور في توجيه خطاب الصورة توجيها انفعاليا[15]. فما تخلفه صورة كهل مشرّد في العراء من انفعالات لا يقارن مع ما يمكن أن تخلّفه صورة أرملة مشردة مصحوبة برضيعها من حزن وتأثير عميق. فالصورة الثانية أكثر إيلاما وأكثر تهييجا للعواطف. وقد تكون الصورة نفسها أقل إيلام إذا ما تمّ التبئير على حالة الشخص. فإذا ما قارنا الصورة نفسها مع صورة طفل فقير يعاني من إعاقة عقلية وجسدية وفاقد للسند فإن وطأة الفقر في نفوسنا سيكون أشدّ. فموضع الشخص وحالته كان بمثابة الجزئيات التي نستخلص منها ما هو كلي (الانفعال) بموجب فعل استقرائي أو هي مقدمات تفضي بنا إلى نتيجة استنادا إلى رابط منطقي. فالانفعال هنا مستنبط[16] فتعتمد الصورة على حجة الباطوس للتأثير. فالمبدأ العام هنا هو أن الأضعف في حاجة دائمة إلى التعاطف والمساعدة والصورة لا تعرض إلا مقدمات ينجم عنها توليد نتائج مثل الغضب أو الحزن أو القيام بأعمال معيّنة. وما يبرّر الوصول إلى هذه النتيجة هو هذا المبدأ العام الرابط الواصل .

إنّ تأثير الخطاب المرئي قد يكون أقوى بكثير من الخطاب المكتوب باعتبار أن المعلومات البصرية هي الأعلق في الذهن حسب بعض الدراسات. فقد لوحظ أن استيعاب الفرد للمعلومات يزداد بنسبة 35% عند استخدام الصوت والصورة في آن معا وأنّ الاحتفاظ بهذه المعلومات في الذاكرة وفقا لذلك يطول بنسبة 55% [17]. فخطاب الصورة لا يكتفي إذن بنقل معاناة الفقير صوتا ومشهدا بل يمارس على العين عنفا فيجبرها على الاحتفاظ بصورة المعاناة في الذاكرة. فيكون الانفعال أشدّ والتأثير أقوى. إن هذا التركيز على حجج الإنفعال قد يساهم في إضعاف حجة اللوغوس[18]. فيصدّ تهييج الانفعالات عقل المتقبل على التفكير العقلاني ويجعله منحازا لعواطفه مما يجعل من صور الفقر وسيلة للتلاعب بمشاعر المشاهد لتحقيق غايات قد تتجاوز فضح واقع الفقر إلى التجارة بالفقر والفقراء لأجل مصالح شخصية ضيقة ترتبط بباث الصورة.

[15] عبيد (حاتم) : الباطوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب، فصول، ع 70، ص 50

[16] المرجع نفسه، ص 52

[17] العبد (محمد) : الصورة و الثقافة و الاتصال، فصول، ع 62، ص 134

[18] هي الحجج اللغوية المنطقية التي تشكّل القطب المنطقي العرفاني ورد ذلك في مقال الباطوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب لحاتم عبيد

III. الصورة و حجة الإيطوس

لا تقتصر الصورة على اعتماد حجة الباطوس بل تستند أيضا إلى حجة الإيطوس. ويمثل الإيطوس عند أرسطو حجة قوتها تستمد من الصورة التي تكون للمتكلم لدى السامع ومن الأثر الذي يتركه الخطيب في نفوس الجمهور[19]. فعلى قدر نصاعة تلك الصورة وحسن هذا الأثر تتهيأ للخطيب فرص الفوز بإعجاب الجمهور وكسب ثقتهم وتتيسّر له سبل استمالتهم وإقناعهم[20]. إن الحديث عن الإيطوس يلقى وجاهته في الخطاب اللغوي باعتبار أن اللغة مسكونة بالذواتم المحيلة على القائل[21] ولكن هل يمكن الحديث أيضا عن حضور هذه الذاتية في خطاب الصورة ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تكون بنعم فهذه الذواتم أيضا لها حضور في الصورة ولكن بطريقة أخرى. فاختيار المرسل لموضوع الصورة ولزمان عرض الصورة ومكانها لا يخلو من ذاتية. فأن يعرض أحدهم صورة لفقراء محتاجين ليلة الانتخابات الرئاسية سيجعله في صورة المستثمر لمعاناة الناس بغاية تحقيق مصالح سياسوية ضيقة فلا تنجح الصورة عندها في الإقناع باعتبار أن المخاطب قد خرق مبدأ أخلاقيا وهو مبدأ المصدقية وخرق مبدأ قانونيا وهو الصمت الإنتخابي. أما عن طريقة التبئير واختيار زاوية الالتقاط الصورة وأسلوب التقاطها فهي تعتبر موجّهات محيلة على المرسل. فلا ننسى أن الصورة تضيء جانبا من العالم لتخفي آخر في الظلام وكل ذلك مرتبط بمقاصد المخاطب وغاياته. إن صورة المرسل الإيطوسية لها إذن بعد أخلاقي[22]. هذا الأمر دفع أركيوني إلى إخراج الإيطوس من دائرة المتكلّم الفرد إلى ساحة الجماعة المتكلمة. فهو إيطوس جماعي بمقتضاه تنفرد كل جماعة ثقافية بأسلوب تخاطبي معيّن وطريقة في الظهور والتصرّف أثناء التفاعل تتحدد بحسب نظام القيم السائد في تلك الجماعة[23]. ففي المجتمعات العربية الإسلامية سينظر لباث صور الفقر على أنه شخص فاعل للخير محقق لمبدأ التكافل الاجتماعي. فباث مشهد الفقر يرسم صورة خاصة به فيظهر لنا في شكل المتعاطف مع الفقير الساعي إلى إبراز معاناته. فهو في ضوء أخلاق هذه الثقافة لا يسكت عن الباطل بل يعري الواقع ويفضح المستور. فيلبس الباث عندها قناع المصلح المصغي لمشاكل شعبه. فالمخاطب يتقنع إذن بقناع القيم

---

[19] عبيد (حاتم) : في تحليل الخطاب، ص 106

[20] المرجع نفسه، ص 106

[21] يعني راباتال بالذواتم التأليف التلفظي synérétisme enonciatif و هو " أنا و الآن و هنا " و عبارات التقويم evaluatifs و الوجدان affectifs و الموجّهات modalisateurs و الروابط connecteurs ورد ذلك في كتاب الذاتية في الخطاب السردي لمحمد نجيب العمامي ص43

[22] الإيطوس هي الحجج الأخلاقية عند أرسطو ذكر ذلك في مقال الباطوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب لحاتم عبيد ص 37

[23] عبيد (حاتم) : في تحليل الخطاب، ص 122 (مفهوم الإيطوس الجماعي صاغته أوركيوني)

الأخلاقية السائدة ويجعل من كيفية تقديم الصورة وعرضها وسيلة لإبراز هذا الإيطوس الجماعي. فمرسل الصورة إذن يؤكد الوجه الإيجابي فيه وقد يتجاوز الأمر عرض صور الفقراء إلى إبراز تدخّله ومساعدته للمحتاجين. في المقابل، لئن دعّم الخطاب صورته الإيجابية فإن المرسل أيضا يرسم للمرسل إليه صورة إيطوسية تبرز وجهه السلبي. في هذا الصدد، يرى غوفمان أن لكل كائن اجتماعي وجهان :

- وجه سلبي (LA FACE NEGATIVE) وهو ما يتعلّق بكل ما يتميز به الفرد من خصائص جسدية ومكانية وزمنية ومن أشياء أخرى مادية وعرفانية
- و وجه إيجابي (LA FACE POSITIVE) وهو ما يتعلّق بالصورة النرجسية التي يختلقها كل متكلم لنفسه ويفرضها في كل مقام تعاملي.[24]

ففي كل تعامل خطابي إذن لنا أربعة وجوه: وجهان لكل متكلّم. وقد يتسبب المتكلم في الخطاب في إراقة ماء وجهه ببعض الأعمال وقد يتسبب في النيل من وجه الطرف المقابل[25]. فأعمال الأمر والنهي قد تكون في بعض المقامات مهددة لماء وجه المخاطب. إن نجاح الباث في خطابه إذن مرتهن بمدى قدرته على تعزيز وجهه الإيجابي وإنقاذ وجهه السلبي والحيلولة أيضا دون إهدار ماء وجه المتقبل[26]. فما حرص المتكلم أثناء المحادثة على حفظ ماء وجهه ووجه مخاطبه إلا لأنّ في إراقة ماء الوجه إساءة نفسية وتوليدا لمشاعر غير مرغوب فيها مثل الغضب والخجل والحرج[27]. فهل يبقى الأمر نفسه إذا ما اعتبرنا أن نجاح خطاب صورة الفقر لا يكون إلا في إراقة ماء وجه المخاطب إراقة متعمدة ؟

فالباث يفضح عورة المجتمع العاجز عن مدّ يد المساعدة إلى الفقير ويمارس عليه عنفا بصريا بتذكيره بهذا العجز. هذه الصورة تريق ماء وجه المخاطب فتظهره في حالة عجز وصمت وسكوت رغم علمه بذلك ورغم إمكانه مدّ يد العون. فالمشاهد يظهر في صورة المقصّر بل قد يحمّله خطاب الصورة مسؤولية الوضع لذلك نجد بعض الدول المستبدة تسعى إلى صنصرة هذه الصور والمشاهد كي لا تريق ماء وجهها الإيجابي لدى الجمهور ولكي لا تبرز صمتها وعدم تفاعلها إزاء هذا الوضع . إن باث الصورة قد تجاوز إذن مرحلة السكوت الجماعي ليعبّر عن طريق الصورة عن فعله الرافض للفقر. في المقابل، يؤكد المخاطب الصورة السلبية في المخاطب فيكون هذا المتقبل مجبرا على إزاحة هذا الوجه السلبي لينتقل بدوره إلى القيام بأعمال

[24] الخبو (محمد) : الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، ص 470
[25] المرجع نفسه، ص 470
[26] عبيد (حاتم) : في تحليل الخطاب، ص 120
[27] عبيد (حاتم) : في تحليل الخطاب، ص 121

قد تتمثّل في إرسال مساعدات أو توزيع بعض الإعانات بل قد يصل الأمر إلى التظاهر في الشوارع والاحتجاج على هذا الوضع فيبرئ نفسه من حالة الصمت واللامسؤولية ليلقيها على عاتق السلطة التنفيذية. فبقدر نجاح الصورة في إراقة ماء وجه مخاطبها بقدر ما تكون أقوى على التأثير فيه وحثه على القيام بأعمال قد تغيّر واقع الفقير. والصورة التي لا تنجح في التأثير في المتقبل محكومة انطلاقا مما ذكرنا بالفشل.

خاتمة :

يمكن أن نخلص إذن إلى أنّ صور الفقر تزخر بالحجج الإنفعالية التي تستثمر تمثلات الفقر الجماعية لتدفع المشاهد إلى القيام بأعمال مختلفة تخلّصه من الإحساس بالذنب وتزيح عنه صورة المذنب السلبية التي رسّخها باث الصورة فيه. وانطلاقا مما قدّمناه يمكن أن نستنتج أن الصورة الإعلامية المتعلقة بالفقر قد تحولت إلى سلطة فلم يعد غايتها نقل واقع الفقير والدعوة إلى مساعدته بل أمسى هدفها التأثر الانفعالي الذي بمقتضاه تُستغلّ معاناة الناس لتحقيق مآرب خاصة.

قائمة المراجع

الكتب :

- أرسطو : الخطابة، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، 1979
- الخبو (محمد) : الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، دار صامد للنشر و التوزيع، تونس، 2003
- الراضي (رشيد) : المظاهر اللغوية للحجاج : مدخل إلى الحجاجيات اللسانية، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2014
- العمامي (محمد نجيب): الذاتية في الخطاب السردي، دار محمد علي الحامي للنشر، صفاقس تونس، 2011
- خريّف (محي الدين) : الأمثال الشعبية التونسية، دار المعارف للطباعة و النشر، تونس، 2003
- عالمي (سعاد) : مفهوم الصورة عند رجيس دوبري، أفريقيا الشرق، المغرب، 2004
- عبيد (حاتم) : في تحليل الخطاب، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، صفاقس، 2005
- قريرة (توفيق) : الاسم والاسمية والإسماء في اللغة العربية، قرطاج للنشر و التوزيع، تونس، 2011

المقالات :

- عبيد (حاتم): الباطوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب، فصول، عدد 70، 2007
- العبد (محمد) : الصورة والثقافة والاتصال، فصول، عدد 62، 2003

- Jean-Christophe Marcel : représentations collectives, Encyclopedia Universalis,2015

- Destremau Blandine : Mustapha Nasraoui, La représentation de la pauvreté dans la société tunisienne [compte-rendu] , Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, n°83-84, 1997
- Claire Gondard-Delcroix : Les représentations de la pauvreté : quels échos aux indicateurs internationaux ?, Mondes en développement 2007/1 (n° 137)
- Abdelhamid Hénia : Représentations sociales de la richesse et de la pauvreté à Tunis aux xviiie et xixe siècles, Maghreb dimensions de la complexité, Institut de recherche sur le Maghreb contemporain, 2004